الباب الأول

المنهج

obeikan.com

obeikan.com

توطئة

إن ظهور الإسلام كدين سماويّ وعقيدة ربانية يعد نعمة كبرى على البشرية جمعاء في كل زمان ومكان. وإن كان للعرب فضل احتضان ونصرة هذا الدين إلا أنه لم يلبث أن انتشر في العالم المعروف آنذاك، وجاء هذا الانتشار ليؤكد عالمية هذا الدين وأنه للبشر لا للعرب فقط. وأن هذه الرسالة التي جاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - يجب أن تصل إلى الناس كافة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً . . ﴾ [سبأ : ٢٨].

ولذا سخر الله سبحانه لهذا الدين رجالاً عظماء حافظوا عليه بنشره وتطبيقه في حياتهم ليعطوا القدوة الحسنة للأمم التي يدعونها إليه. ولذا تمثلوه إيماناً في قلوبهم وقدوة في سلوكهم خدمة لهذا الدين الذي نسخ الله به جميع الأديان واكتسحت فكرته كل الأفكار وفاق نظامه ما سبق من نظم. كل ذلك ليتحقق للناس في الإسلام حياة كريمة يسعدون بها في الدنيا والآخرة.

لذا لم يكن أتباع محمد ﷺ غزاة محتلين أو عساكر طامعين بل كانوا هداة مهديين، لقد دخلوا بلاداً ممزقة فوحدوها وجاهلة فعلموها ومظلومة فحرروها. حولوها من الإقطاع إلى الإسلام ومن الضرائب إلى الزكاة أو الجزية - والأهم من ذلك كله حولوها من الكفر إلى الإيمان ومن الجمود إلى التفكير ومن التخلف إلى التقدم.

ومن كمال سعادة تلك الشعوب بالإسلام وتعاليمه أنه رغم الضعف السياسي والعسكري للمسلمين كدولة وصولة فقد أبقت تلك الشعوب على ما نالته في ظل الإسلام من خير عميم. نعم لقد خرج المسلمون من الديار لكن الإسلام لم يخرج من القلوب، خرج الفاتح لكن بقي الفتح. طرد المسلمون من بعض الديار التي فتحوها هذا صحيح ! لكنهم خرجوا منها وهي خيرٌ مما دخلوها.

ولك أخي أن تقارن بين تلك الحالة التاريخية النادرة في التاريخ التي أدت بالفاتحين أن يرتقوا بأهل البلاد المفتوحة إلى مصاف الشعوب المتقدمة إيماناً وعلماً وصناعةً وسيادةً على كل صعيد. وبين الحالة المعاصرة حينما احتلت الجيوش الأوروبية الصليبية المعاصرة بلادنا وبلاد غيرنا فيما عرف بالاستعمار أو (الاستخراب).

الصورة معكوسة تماماً القوي المحتل جاء تحت شعارات براقة معلناً أنه سيرقّي الشعوب ويعلمها وينظمها ويحفظ كرامتها ويدفع عجلة اقتصادها، وإذا به يطبّق سياسة تنافي ما دعا إليه على كل صعيد.

ولذا عندما خرج من بلادنا تركها أسوأ مما دخلها متخلفة سياسياً وعلمياً وصناعياً ، تشيع فيها الفوضى، ويرتع فيها الظلم واقتصادها مريض قد أصابه الفقر لأن ذلك المستعمر امتص كل خيراتها من موارد بشرية وحيوانية ومعدنية وغيرها.

والأهم من ذلك أنه تركها والأخلاق فيها قد فسدت والدين قد اضمحل، وجعل أعزة أهلها أذلة بل لقد سلب كل روح وقادة وإبداع متألق.

هذه الحالة التاريخية التي لا تزال آثارها قائمة تعود إلى الخواء الروحي للغرب المستعمر وأسلوبه الهمجي وفقره الفكري ومن وراء ذلك الروح الصليبية المتجددة التي تحركه ضد الإسلام وأهله.

المبحث الأول

خصائص الحضارة الإسلامية

نبعت معالم وخصائص الحضارة الإسلامية من الإسلام ذلك الدين السماوي الخاتم الذي ارتضاه الله سبحانه ليكون الرسالة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة، وجعله سبحانه صالح لكل زمان ومكان، للثقلين (الجن والإنس) ومن هذا الدين استمدت الحضارة الإسلامية خصائصها التي ميزتها عن الحضارات التي سبقتها أو تلك التي جاءت بعدها، وكان أساسها الأول الوحيين (الكتاب والسنة) وهما يمدان العالم المسلم في مجاله العلمي بالنظرة الكلية للكون والحياة ويعيناه على فهم الوجود من حوله، على ما يجب أن يكون عليه ذلك الفهم والتصور الكلي ليستنطق الكون ومعطياته التي لا تقف عند حد، وستمر معنا نصوص واستشهادات كثيرة تبين هذا المعنى في (المنهج التجريبي في القرآن).

ومن خصائصها الأخلاق:

لا ريب أن الأخلاق الفاضلة هي سر بقاء الأمم واستمرارها، فأي أمّة تتحلل أخلاقها وتفسد تضمحل وتتلاشى، وللأخلاق ارتباط لا ينفك بالإيمان الذي جاءت به الشرائع السماوية. والتي جاءت أيضاً مؤكدة على بناء المجتمعات الإيمانية ليسود فيها الخلق الفاضل والسلوك المستقيم.

وفي شريعة الإسلام نجد هذا التلازم بين الأخلاق والإيمان واضحاً، وبهذا التلازم استطاعت الحضارة الإسلامية الارتقاء وتحققت لها السيادة على البشرية لقرون طويلة ومتواصلة.

كما انعكس هذا التلازم على الحركة العلمية الإسلامية حيث أصبحت تسير في خط متوازٍ مع الأخلاق والإيمان ليتشكل ثلاثيّ (العلم والإيمان والأخلاق) الذي أثمر حضارة عظيمة نهض بها رواد عظام.

لقد جعل المسلمون أخلاقهم صمام أمان لانتاجهم العلمي وسلوكهم الشخصي. وبروح الأخلاق هذه لم يندفعوا إلى ما يمكن أن نطلق عليه الغرور العلمي في أبحاثهم حيث لم يبحثوا فيما لا يدخل في نطاق العقل أو القدرة البشرية، ولم يسخروا علومهم لأهداف شريرة بل كان العالم منهم يحمي شرف العلم ويحافظ على كرامة أهله ولا يدنسه بسلوك مشين. ولم تكن الغاية لديهم تبرر الوسيلة، لأن العلم لديهم أرفع وأسمى من أن يكون وسيلة للغايات المنحرفة والفاسدة.

وهذا العالم الطبيب (ابن النفيس) يصرح بأنه عدل عن مباشرة التشريح لوازع شرعي ولما في أخلاقنا من الرحمة، وذلك بعد أن مارسه فترة من الزمن[1]. ورغم إجازة الشرع لما فيه حاجة كالتشريح إلا أنَّ هذا الموقف العظيم لابن النفيس يدلّ على حساسيته الأخلاقية المفرطة.

والأخلاق لم تكن في أوساط العلماء (فقط) بل كانت السمة الغالبة للمجتمع المسلم. وتمثل هذا في التراحم والترابط والتعاون والتكافل والعفة، وكلها معانٍ عظيمة راقية حثَّ عليها الإسلام وندب إليها المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومن خصائصها النزعة العلمية:

أخذت النزعة العلمية عند المسلمين إبَّان عصور إزدهار علومهم شكل الظاهرة الحضارية، حيث أصبح للعلم سوق رائجة راج فيها الكتاب ومؤلفوه وما يحويه من معارف وعلوم وآداب. حتى قيل إن المسلمين لم يتركوا مجالاً إلا وطرقوه تأليفاً، وقتلوه بحثاً.

ولا غرو فالمصادر التي نبعت منها الحضارة الإسلامية زخرت بالعديد من النصوص الإرشادية المتكررة التي تحث على العلم وتبين فضل أهله وتربطه بالإيمان. وفي أول التنزيل قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ [العلق:١]، ثم تتوالى النصوص القرآنية والنبوية. التي تحرض على تلك النزعة، فمن القرآن:

١ - قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر: ٩].

٢ - وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..** ﴾ [فاطر: ٢٨].

٣ - وقوله سبحانه: ﴿ **رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾ [طه: ١١٤].

ومن السنة:

قوله عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٢].

وقوله أيضاً: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[٣].

وقوله أيضاً: «تعلَّموا العلم، وتعلَّموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه»[٤].

ومن أقوال الصحابة في الترغيب في العلم نصيحة الإمام علي كرم الله وجهه لتلميذه كميل بن زياد حيث قال له: «يا كميل العلم خير لك من المال، المال تحرسه والعلم يحرسك، والمال ينقص بالنفقة والعلم يزكو على الإنفاق...».

ولتمكن النزعة العلمية في نفوس رواد الحضارة الإسلامية دفعهم ذلك إلى تسهيل الحصول على المعرفة لكل طالب لها.

بينما كان العلم والمعرفة عند الأمم السابقة حكراً على الطبقات الاجتماعية الراقية كرجال الدين والبلاط والأسر الحاكمة. كما حرم منه الفقراء والنساء، حتى قراءة الكتب المقدسة. ففي عهد الملك هنري الثامن (ق١٦م) حظر البرلمان البريطاني على المرأة قراءة الانجيل. أما عندما جاء الإسلام فقد حث على العلم وجعله حقاً مشروعاً لكل أحد، فدعوة القراءة موجهة للجميع بلا استثناء أو انتقاء. وإليك شهادة غربية من (برنال) حيث يقول: (إن الفضل أعظم الفضل يعود للعلماء العرب في الحفاظ على هذا التراث وتدوينه ونقله والتأليف فيه، وإن العلماء العرب قد برعوا في ذلك وإنهم تفوقوا على الاغريق، بأن جعلوا العلم سهلاً مستساغاً فأقبل الناس على النهل منه وكانت ميزة انفرد بها العلم العربي)[٥].

ومن خصائصها التلازم بين العلم والعمل:

أي أنها تعلن المبادئ عن طريق القدوة وبمعنى آخر تترجم ما تنادي به إلى عمل حركي يثمر حياةً يسعَدُ به الإنسان. والعلم في نظرها ليس هدفاً في غايته القصوى ولكن العمل المستقيم الذي منه العبادة (شريعة وسلوكاً) هو الغاية التي يحياها الإنسان لرضى ربه سبحانه. يقول سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهل العبادة إلا العمل، وهل كان العمل إلا عبادة.

أي أنها ترى أن العلم وسيلة للعبادة مع الأخذ في الحسبان المفهوم الحضاري الإسلامي للعبادة على أنها تشمل جميع نواحي الحياة إذا صلحت الأعمال وسلمت النيات.

ولذا فإن كل ما أفرزته الحضارة الإسلامية من علوم ومعارف وتطبيقات

على تلك العلوم والمعارف يدخل في باب العبادة بمفهومها الواسع. فقد كان العلماء المسلمين يدركون هذه الحقيقة حق الإدراك حيث يبدأون بالاستعانة بالله في جميع بحوثهم وأعمالهم ويثنون بالتوكل عليه سبحانه وإرجاع القدرة والعون إليه وحده مع الاعتراف بفضله في جميع ما يتوصلون إليه من نتائج ويعدون ذلك من توفيقه سبحانه.

ومن خصائصها تقدير قيمة الوقت:

ليس أمة تريد أن ترتقي وتنهض إلا كان لزاماً عليها أن تعرف للوقت قيمته. لأن الوقت هو الحياة. وعلى العكس فالأمة الخاملة التي تسير في آخر الركب أمة لا ترعى للوقت وزناً ولاقيمة. ولقد أعطى المسلمون في حضارتهم قيمة للوقت لم يعرفها له أي أمة سابقة. ويتضح هذا من خلال النصوص الشرعية والحياة العملية. فالقرآن زرع في حس المؤمن أهمية الزمن وحسن إستغلاله بما ينفع في الدنيا والآخرة ويكفينا قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢]. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع...» وذكر منها (عن عمره فيما أفناه). (رواه الترمذي عن ابن مسعود ورواه مسلم (مرفوعاً) عن أبي برزة الأسلمي، انظر فتح الباري ٤١٤/١١).

ولا شك أن تقدير قيمة الوقت تحفز المسلم إلى استغلاله واستثماره على الوجه الأوفق. ومما يؤكد هذا الاستغلال الأمثل للوقت عند المسلمين ذلك الإنتاج العلمي الغزير في كل العلوم والمعارف، وأن الإنسان ليرى ذلك الجهد الخارق الذي مضى عليه مئات السنين فيعجب من جلدهم وصبرهم وحبهم للعلم وحسن استغلالهم لأوقاتهم التي شغلوها بالعمل الصالح لأمتهم ولدينهم. فنجد مثلاً (ابن النفيس) يضع موسوعة طبية تقع في ٣٠٠ مجلد لا يصل إلينا منها إلا ثمانون فقط. ومن يصدّق أن الإمام (أحمد ابن حنبل) كان يحفظ

(مليون حديث) وأمثلة كثيرة لا حصر لها تؤكد تقديرهم للوقت وإدراكهم خطورة هدره مما دفعهم إلى استغلاله واستثماره على الوجه الأكمل.

ومن خصائصها تنظيم العلاقات:

وإبداعها في تنظيم العلاقات الخاصة والعامة بين الأشخاص أو بين الدول، وبين الحاكم والمحكوم، وبين المرأة والرجل، وبين العالم والمتعلم، وبين الصغير والكبير، وبين المؤمن والكافر، والأهم من كل هذا تنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق. وقد تعلمنا من حضارتنا أن العلاقات تعني اتجاهات متبادلة بين الحقوق والواجبات.

فكما تطالب بحقوقك فيجب عليك أن تؤدي ما عليك من واجبات التي هي حقوق لغيرك، وهكذا يأتي القول المأثور: (الدين المعاملة) وليس شيء بعد وحدانية الله سبحانه ساقته الحضارة الاسلامية للبشرية (هدية) أعظم من تأدية الحقوق لأصحابها ولا ريب أنه يدخل في دائرة تلك الحقوق التي حرص المسلمين على أدائها حتى ولو كان ذلك يخالف في الظاهر المصلحة الإسلامية (الخاصة أو العامة). أقول يدخل في دائرة أداء الحقوق، الوفاء بالعهود والمواثيق السياسية، والعسكرية، (مثال: صلح الحديبية... وغيره) على أن المسلمين لم يتنازلوا مقابل ذلك عن حقوقهم الخاصة والعامة، وبالذات حق الله في تطبيق شرعه.

ومن خصائصها أيضاً الحرية المطلقة:

وأقصد تلك الحرية التي تخدم الإنسان وتسعده لا تلك التي تفسده أو يفسدها، ومن نافلة القول أن الحرية أم شرعية للابداع ولقد أظلت الحرية الحضارة الإسلامية بظلال وارف وهبت عليها بنسيم عاطر، جعل القلوب والعقول تتفتح كما تتفتح الزهور في فصل الربيع. فنعم بهذه الحضارة حتى

من لم يكن مسلماً من اليهود، والنصارى من رعايا الدولة الإسلامية. فأبدعوا في ظلها وأنتجوا علومهم، ومعارفهم، وكتبوا مؤلفاتهم.

لقد أسس الوحي الإلهي القاعدة التي انطلقت منها الحرية الفكرية والانفتاح العقلي للتدبر في الكون، والحياة، والسماء، والأرض، وفي اختلاف الليل والنهار. وليس بعيداً عن أذهاننا الأوامر الإلهية التي تدعو إلى النظر في الآثار والسير في الأرض والدعوة إلى تقليب العقول بحواسها البصرية لربط المقدمات بالنتائج، والبحث عن الأسباب لتقوية الإيمان في صدور من لهم قلوب واعية.

وفي القرآن دعوة للنظر والتأمل والإمعان وتحريك الحواس بحرية مطلقة على اعتبار أنَّ في الكون مؤثرات وظواهر يجب أنْ تحرّك القلوب المؤمنة، وترهف حاسة الاستقبال لديها، لكي تتقدم بطمأنينة المؤمن وثقة العالم العامل للمشاركة الحضارية. ليس هذا فحسب بل إنّ الدارس المتمعن في حالة العالم الإسلامي في أبهى عصوره العلمية وتقدمه الحضاري يدرك عاملاً آخر كان له دور هام في توسيع دائرة الحرية ونطاقها التي تحرك العلماء من خلالها، وأقصد النظام السياسي الذي كان يحترم العلماء ويسخَّر لهم الامكانات إلى جانب تهيئة جو كاف من الحرية السياسية والكرامة الإنسانية للعلماء المنتجين، حيث كان الخلفاء وكثير من حكام الدويلات المستقلة يشجعون الآداب والعلوم وروادهما بل برز من هؤلاء الحكّام طائفة دخلوا في عداد العلماء.

إن الحرية السياسية رغم دورها كعامل للإنطلاق والإبداع الحضاري لم تكن هي الصورة الوحيدة للحرية. فقد ظهرت إلى جانبها الحرية العلمية حيث لم يكن العالم يسير على طريقة غيره دون تدبر أو نظر أو إمعان أو تمحيص بل كان لدى علمائنا من الشجاعة الأدبية والحرية العلمية ما جعلهم يستدركون

حتى على مشايخهم إذا ثبت بالدليل والبرهان خطأهم - مع التزام الأدب وإظهار التوقير لهم - ومن أمثلة ذلك ما فعله الطبيب ابن النفيس عندما استدرك على ابن سينا (مثلاً) رغم شهرة ابن سينا الطبية ومكانته العلمية. لماذا؟ لأنه يتحرك بحرية علمية، مبدأها عدم تصديق ما لا تراه عينه أو يقره عقله[٦].

ومن خصائصها النزعة الإنسانية:

لقد جاءت شريعة الإسلام لتكون شريعة للعالمين وللناس كافة غير محدودة الزمان ولا المكان. فهي دعوة عالمية ذات نزعة إنسانية. ولهذا حمل الفاتحون مشعل الهداية من الجزيرة العربية إلى العوالم من حولهم لإيصال دعوة الإسلام الخالدة إلى الناس كافة وإقامة الحجة على البشرية لعبادة الخالق وإفراده بالتوحيد. ولقد وسعت هذه الحضارة الإنسانية في نفعها وخيرها الإنسان في كل مكان حيث اختلط العرب الفاتحون بالروم ومن ورائهم أفريقيا، والفرس ومن ورائهم آسيا، وبذلك شاركت شعوب تلك البلدان في بناء حضارة الإسلام بعد أن شكلوا أغلبية رعايا الدولة الإسلامية في ظل تراجع دور العرب نسبياً. وأيضاً ساهم في هذه الحضارة عدد لا بأس به من أتباع الديانات والمذاهب المغايرة للإسلام.

ومما يؤكد إنسانية هذه الحضارة وعالميتها أيضاً استيعابها للغرباء الناهلين من مناهلها العذبة من أوروبا أو أقاصي آسيا أو جنوب أفريقيا.

ومن ذلك تسامحها مع الأعداء عندما يكون مجال الاحتكاك بهم يخدم العلم والمعرفة كما حصل في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية وفي الأندلس في حروب الاسترداد الأسبانية. ومما سبق يتضح بجلاء ثمار إنسانية حضارتنا المتمثلة في العدل والمساواة التي شمل برهما كل من دخل في دائرة دولة الإسلام وإن لم يكن مسلماً موحداً.

ومن خصائصها الإنصاف:

ذلك الإنصاف المنقطع النظير الذي هو من الصور المشرقة للعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض. وطبقته الأمة الإسلامية في جميع شؤونها. ومنها الجانب العلمي الذي نحن بصدد الحديث عنه.

وذلك تمشياً مع تعاليم الوحي الكريم حيث يقول سبحانه: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ..** ﴾ [المائدة: ٨].

ولذا اهتدى علماء الإسلام بهدي القرآن وتخلقوا بأخلاقه فكانوا بحق منصفين مع غيرهم أمناء في نقلهم لعلوم وكتب من سبقهم.

حيث كان الاحتكاك بالثقافات السابقة أحد عوامل نهضة العلوم في الحضارة الإسلامية ومع ذلك لم يدعِ علماء الإسلام ما ليس لهم ولم يمارسو قرصنة علمية لتراث الأمم السابقة بل نسبوا الفضل لأهله واعترفوا بحقوقهم العلمية والأدبية فيما أنتجوه.

على أن أمانتهم العلمية تلك لم تمنعهم من ملاحظة الأخطاء العلمية (النظرية والتطبيقية) واستدراكها وتصحيحها والإضافة إليها بل والإبداع في مجالها العلمي فيما لم يسبقوا إليه.

مما دفع كثير من المستشرقين، وغيرهم إلى الاعتراف بفضل المسلمين وجميلهم على حضارتهم حيث إنه بمنهجهم القائم على الانصاف ساهموا في حفظ تراث السابقين، وحفظ تلك المعارف، والعلوم اليونانية، والرومانية، والهندية، والصينية... وغيرها. وكونوا جسراً حضارياً مرت عليه تلك العلوم بعد تطويرها إلى أوروبا حيث أقامت عليها نهضتها العلمية والصناعية بعد تراجع المد الحضاري الإسلامي.

obeikan.com

المبحث الثاني

أمة اقرأ

تفتحت الحضارة الإسلامية على كلمة خالدة ومبدأ حضاري عظيم جاء في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ..﴾ [العلق:١]، إن المتأمل لهذا النص القرآني يجده يحمل في أول كلمة منه أمراً سبق أي أمر وتكليفاً سبق أي تكليف، (إقرأ). ليجد أن الله سبحانه استودعه سر الحضارة بشقيها العلم والإيمان، لأن القراءة هي سبيل العلم الميسر.

ولنقرأ السياق معاً في مطلع سورة العلق. يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. تربطنا الآيات الكريمات السابقة عبر إرشادات تبدو عابرة بحقائق جديرة بالتدبر فالآيات تعلمنا أن القراءة لا تكون إلا (باسم الرب) الذي خلق الإنسان المتعطش للمعرفة، وإذا سرنا مع السياق القرآني، نجده يذكّر الإنسان بأنه مخلوق ضعيف محتاج لمن خلقه وأعظم صور تلك الحاجة هو إرواء ذلك العطش المعرفي، الذي أكرم الله به خلقه وهيأ لهم وسائله فإذا هذا الإنسان يتعلم ما لم يكن يعلم مع القابلية للزيادة التي لا تنقطع إلا مع انقطاع الحياة.

والله سبحانه يحذر المخلوق الضعيف (الذي كان جاهلاً) من أن يقوده علمه المتزايد إلى الطغيان والغرور والتعالي على صاحب الفضل (الخالق سبحانه) الذي خلق وعلم.

إن المؤمن هو الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن لا يقع في مستنقع الغرور والتعالي لأنه يدرك بشريته ومحدودية طاقاته العقلية وقصور حواسه المادية، ويخضع خضوعاً تاماً لله الذي أنعم عليه بالعلم ووسائله، ولذا يُرجِع المؤمن العلم إلى السميع العليم، يقول تعالى، مادحاً هذه الصفوة المؤمنة: ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ٧].

ولكن عندما ينتفي الإيمان تختل عملية البناء الحضاري، لأن الحواس العقلية يصيبها الاضطراب في عمليتي الإرسال والاستقبال. تمعن في قول الحق سبحانه: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يونس: ١٠١].

إن الآية السابقة لم تنفِ وجود المؤثرات فهي كثيرة، تقرع الأسماع، وتجهر الأبصار، وتملأ السموات والأرض، ولكن النفي وقع على التأثر والأثر، نعم هناك إرسال ولكن الاستقبال معدوم، إن الآية لم تنف وجود النذر بل نفت وجود الإيمان.

المبحث الثالث

المنهج التجريبي القرآني

عند تدبر بعض النصوص القرآنية المتكررة في مواضع متعددة في كتاب الله سبحانه نستطيع أن نلمح معالم ومقومات وأساسيات المنهج العلمي التجريبي الذي أسسه المسلمون(●) وابتدعوه.

وسنرى أن هذه النصوص وما تحمله من إشارات وإرشادات تدل بما لا يدع مجالاً للريب، أنها دعوة صريحة غير مسبوقة إلى العلم وابتكار وسائله وذلك عن طريق تفعيل دور الحواس المرتبطة بالعقل عند الإنسان، لتأتى هذه الدعوة دليلاً على التلازم المستمر بين الإيمان والعلم والعمل في دين الإسلام.

ومن عناصر المنهج العلمي التجريبي في القرآن الكريم:

١ - الاستقراء:

في القرآن مواضع عدة لافتة لكل ذي عينين تدعو إلى التأمل ولفت النظر إلى الكون والفضاء الواسع من حولنا. يقول سبحانه: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾ [الملك: ٣، ٤].

(●) سنأتي على تفصيل هذا المنهج في المبحث القادم.

في النص السابق دعوة إلى النظر والتأمل في الكون دعوة مقرونة بالتحدي من الخالق سبحانه لخلقه في معركة خاسرة يرجع فيها البصر خاسئاً حسيراً.

إنها دعوة منصفة إلى منازلة محسومة سلفاً لصالح الخالق العظيم، ومع ذلك يطلب سبحانه من المخلوق الحسير أن يكرر النظر مرة ثانية وثالثة لأنه يريد أن يعلمه كيف يحرك عقله ليقوي إيمانه وملكاته حينها يدرك هذا المخلوق ضعفه أمام عظمة الكون المصنوع بدقه تدل على صانع أعظم حقيق بالعبادة.

ولأن الاستقراء الصحيح يؤدي إلى نتائج صحيحة فيجب أن تستغل الحواس استغلالاً أمثل لتستقبل استقبالاً سليماً لتتحقق تلك النتائج السليمة.

وجميع ذلك لا يتأتى إلا إذا استقر الإيمان في القلب لأنه يهيء العقل للاستفادة من المؤثرات من حوله. يقول سبحانه، ذاماً من لا إيمان له، وهو يملك حواساً لا يعقل بها: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [**الأنفال**: ٢٢].

إن عملية الاستقراء تحتاج إلى تحريك العقل وتشغيل الحواس، وحين يملك الإنسان حواس كالسمع والبصر ولا يحركها في الاتجاه الصحيح فهو قطعاً غير عاقل بل ربما نزل إلى درك أسفل يتساوى فيه مع شر الدواب(●).

٢ - تمييز الجزئيات:

يقول تعالى: ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [**الملك**: ٣، ٤].

(●) يدخل الإنسان في عداد مايدب على الأرض من أحياء. ولكن التعبير القرآني (هنا) يرمي إلى إستدعاء الصورة البهيمية المنحطة التي قد يصل إليها الإنسان المنحرف بتعطيله حواسه، التي كان يجب أن توصله إلى معرفة الله سبحانه حق المعرفة، وفي هذا يقول سبحانه: (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف/١٧٩).

هنا حث للبحث عن جزئيات هذا الكون واكتشاف إبداعات الخالق فيه، وهو سبحانه يحث الإنسان الضعيف على المحاولة تلو الأخرى (مع التحدي) للبحث عن نقص أو عيب أو شقوق في هذا الكون والله سبحانه يعلم أن الإنسان لن يجد ولا يستطيع أن يجد بحواسه المحدودة الامكانيات ولكنه سبحانه يربي الأمة المسلمة على البحث والمحاولة والمشاهدة ثم الاستنتاج.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ ... **وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ** ﴾ وقوله ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ..** ﴾ وقوله ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ﴾ [الروم: ٢٢ – ٢٤].

إن اختلاف الألسن والألوان، والنوم، والبرق، والمطر.... إلخ، كلها جزئيات كونية يلفت القرآن الكريم نظر الإنسان إليها لكي يتدبر ويبحث عن مبدعها سبحانه ليتوجه إليه بالانقياد والطاعة التي يستحقها سبحانه.

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الرعد: ٤].

دعوة ليرى الإنسان هذه الجزئيات من حوله قطعاً متجاورة يراها بعين قلبه لا بعين عقله. فالنص هنا يستدعي العقل وحواسه المرتبطة به لترى وتسمع،وليتحرك القلب بعد ذلك ليربط كل هذا بالصانع وعظمته سبحانه.

٣ – القياس:

لفت القرآن نظر الناس إلى وجوب الإمعان في الكون ومراقبة تغيراته وكانت الدعوة للمؤمنين (على وجه الخصوص) لتقوية إيمانهم وتقريب الأمر الغيبي بالمحسوس. يقول تعالى: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الروم: ٥٠].

إنها دعوة إلى مشاهدة الحياة بعد الموت في واقع محسوس والاستنتاج من خلال الحواس بحتمية الحياة المستقبلية بعد موت الإنسان في هذه الحياة الدنيا، تماماً كما تنبعث الحياة بعد المطر في الأرض الميتة.

ومن تلك الأمثلة ما يتعلق أصلاً بقضية عقائدية بحتة ولكن فيه ما يشير إلى أهمية القياس للوصول إلى النتائج العلمية الصحيحة، يقول تعالى: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِه الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾ [المائدة: ٧٥].

هنا دعوة للتفكير، والقياس لإثبات أن عيسى (عليه السلام) بشر وليس إلهاً. بإعمال المنطق، والعقل، فإذا كان يأكل الطعام هو وأمه فهذا يعني حتماً أنه يحتاج إلى إخراج فضلاته (النص القرآني هذا لا يذكر الإخراج تأدباً لأنه أمر يأتي كنتيجة طبيعية لتناول الطعام) ولذا لا يصلح من يأكل الطعام أن يكون إلهاً.

من ذلك نرى أن السياق القرآني أعطى الأدلة العقلية في كثير من القضايا الإيمانية الغيبية أهمية بالغة وركز على الحجج الدامغة للرد على مفكري البعث مستخدماً أمثلة عقلية شاهدة للعيان يستطيع كل عاقل أن يقيس بعقله وحواسه المادية تلك المعطيات الدنيوية ليصل بها إلى الحقيقة الأخروية.

٤ - المشاهدة:

في القرآن دعوة صريحة ومباشرة إلى المشاهدة والملاحظة وذلك بتفعيل دور الحواس. ومن عجب أن النص القرآني يعتبر حقيقة وجود تلك الحواس بمدى استغلال الإنسان لها، الاستغلال الأمثل، فالوجود العضوي لحاستي السمع والبصر (مثلاً) لا يدل على أن الإنسان يسمع ويرى، إذا كان لا يستخدمهما في استثارة كوامن النفس فيما حوله من معطيات الكون والحياة

الأرضية المحيطة به، ولا قيمة لهذا كله إذا لم تكن هذه الحواس بما تراه وتسمعه يخدم القضية الكبرى لوجود الإنسان أصلاً، وهي عبادة الخالق سبحانه وتطبيق منهجه على الأرض. يقول تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

وفي القرآن دعوة إلى المشاهدة لمعطيات حاضرة ماثلة للعيان على أمم وشعوب صالت وجالت. فيما ينبغي أن يثير في النفس البشرية عدة تساؤلات:- أين هم؟ كيف كانت نهايتهم؟ والسؤال الأهم لماذا انقرضوا...؟

يقول تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ**﴾ [طه: ١٢٨].

إذاً هي دعوة للمشاهدة والتفكير ثم التفكر ثم التساؤل ثم الاستنتاج للوصول إلى الحقيقة، ليقع في حس المؤمن تلك النهاية (الحقيقة) القابلة للتكرار إذا تكررت نفس المقدمات.

وهناك دعوة أخرى للمشاهدة تستحث أهل العقول للامعان في إختلاف وتبدل الظواهر الكونية المتكررة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠].

يقول الأستاذ سيد قطب عن هذه الآية: إن التعبير القرآني يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية في الإدراك السليم، وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار في صميم الكون بالليل والنهار(٧).

ومن المنهج الاستقرائى القرآني مع الحث على المشاهدة وإمعان النظر، لفت النظر إلى جمالية هذا الكون مع مافيه من إعجاز علمي(٨) يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ..**﴾ [الملك: ٥].

فهذا النص يؤكد على الوظيفة الجمالية للكون تلك الوظيفة المتلازمة مع الجانب العلمي والعملي ليأتي الجمال نتيجة للصنع المتقن فكل عمل متقن يأتي في إتقانه جمال وروعة وبهاء ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ**﴾ [**الصافات**: ٦].

وفي هذه اللفتة الجمالية في الكون استحثاث للإنسان (المؤمن) للبحث في مكنونيته والتعرف على خالقه سبحانه واستنطاق معطياته العلمية في نوع من الإغراء لما يظهر فيه من جمال وزينة.

obeikan.com

المبحث الرابع

العلم والإيمان بين حضارتين

ونقصد بهما الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية المعاصرة، على اعتبار أنهما جاءتا متتاليتين زمناً، وأن الأخيرة جاءت متأثرة ومكملة للحضارة الإسلامية. ابتداءً لابد من ذكر منطلقات الحضارتين والأسس التي قامت عليها كل منهما، فالإسلام قام على أساس من الوحيين (الكتاب والسنة) اللذان شجعا على العلم وأكدا على فضله وفضل أهله.

أما الحضارة الغربية فقامت على الفصل بين الدين والعلم. ولظروف تاريخية معروفة حدث صراع مرير بين الدين، وتمثله لديهم (الكنيسة)، والعلم ويمثله (العلماء المفكرون) فقامت حضارة مدنية أوروبية ترى الدين عدواً لها، ولا تؤمن إلا بسلطة العقل والعلم(●).

من المباحث السابقة رأينا كيف كان هناك انسجام، واضح، واتفاق تام، بين العلم، والدين الإسلامي في ظل عقيدة تؤمن بأهمية العلم كوسيلة راقية

(●) هذا الصراع في أوربا يأتي من خلفية توراتية، تصور أن الشجرة التي حرم الله على آدم (عليه السلام) أكلها عندما خلقه، هي شجرة المعرفة. وأن الله حرمها عليه ليضل جاهلاً محتاجاً إليه. لإنه إن أكل منها حاز المعرفة واستغنى بعلمه عن الله. قارن بين هذا الطرح التوراتي والسياق القرآني للقصة وخاصة قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

للمعرفة التي هدفها معرفة حق الله سبحانه.ومعرفة التكاليف على الإنسان (الخليفة) على هذه الأرض.

ولا يمكن أن يتوقع أحد قيام حضارة قوية في ظل غياب (أو تغييب) الدين والأخلاق، والإتكاء فقط على العلم. قد يكون لأوروبا عذرها في الفصل بين مساريّ الدين والعلم. أولاً: لأن دينها منحرف باطل لا يصلح لقيادة العالم وثانياً: أن العلماء كابدوا واقعاً تميز بالعنف من الكنيسة ضدهم خوفاً منها على مكتسباتها المادية والاجتماعية في مجتمعات الإقطاع الأوروبية (المتخلفة) أقول سالفاً قد يكون لأوربا عذرها التاريخي في هذا الفصل بين العلم والإيمان، ولكن ما عذر المسلمين في عصرنا لتقوم بينهم ومنهم دعوات لتطبيق المفهوم العلماني على المسيرة الحضارية قياساً على التجربة الأوروبية، فالقرآن يبدأ الوحي فيه بكلمة (إقرأ) للحث على المعرفة والمسلمون كذلك في تاريخهم نجحوا نجاحاً منقطع النظير في إقامة حضارة شامخة تلازم فيها العلم والإيمان، فالمسلم لا عذر له، لأنه بين حقيقة قرآنية تدعو إلى العلم وتقدسه، وتجربة تاريخية لا زال لديها قابلية للتكرار.

لقد كانت نظرة أوروبا للعلم أنه غاية في ذاته، ولذا رفعت شعار (العلم للعلم) حينها ندرك أن هذا هراء ومضيعة للوقت بما لا يجدي نفعاً، أما النظرة الإسلامية التاريخية (القرآنية) للعلم فهي ترى أنه وسيلة (مجردة) تأخذ قدسيتها من قداسة الغاية التي تخدمها إذا كانت شريفة، والدين جاء لسعادة الإنسان في الدارين. والعلم وسيلة للوصول إلى الدين الذي هو معرفة حق الله سبحانه وحقوق عباده، فإذا كانت الوسيلة لا تؤدي إلى الغاية (وهي عبادة الله) فإنها حتماً لا توصل إلى السعادة الدنيوية ولا الأخروية تبعاً لذلك، ومن هذا المنطلق القرآني صنف المسلمون علومهم إلى نافع، وضار، وإلى واجب، ومحرم.. إلخ.

أما ما يحدث في المدنية الغربية المعاصرة فهو اختلال خطير في العلاقة بين الغاية والوسيلة حيث اختلطت الغايات بالوسائل. وهذا الواقع يصوره لنا الأستاذ سيد قطب حين يقول: (والاتجاه المادي الكافر يقطع ما بين الكون وخالقه ويقطع ما بين العلوم الكونية والحقيقة الأزلية الأبدية، ومن هنا يتحول العلم - أجمل هبة من الله للإنسان - لعنه تطارد الإنسان، وتحيل حياته إلى جحيم منكرة، وإلى حياة مكلفة مهددة، وإلى خواء روحي يطارد الإنسان كالمارد الجبار) [٨].

وفي الختام.. لابد من الاعتراف بأنه حصل انحراف عن الخط الإسلامي العام للحضارة الإسلامية، من بعض العلماء الذين استولت عليهم النزعة العقلية فشذوا عن المنهج الرباني وقدسوا العقل وأصابتهم الأدواء التي أصابت الأمم الأخرى عندما انحرفت عن المنهج الرباني واتخذت من العقل إلهاً بدلاً عن الله سبحانه، وقوة المادة بدلاً عن الإيمان، وتطلعت إلى مدارك تفوق محتمل العقل الذي تحركوا باسمه وناضلوا تحت رايته.

أقول نعم حدث انحراف عن المنهج الإسلامي العام، ولكنه انحراف أفراد لا انحراف منهج، فالمنهج باق ومستمر لأنه مستمد من شريعة ربانية. قال الله تعالى عنها: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [**فصلت**: ٤٢].

إن ما صدر من شذوذ فرديّ هو دخيل على الإسلام وحضارته ومجتمعه، وقد جاء من تأثيرات وثنية إغريقية، أو فارسية، أو هندية. تأثر بها بعض العلماء المسلمين وفي فروع معينة تأثيراً فاسداً منحرفاً حاد بهم عن جادة الصواب[٩].

يقول الدكتور (أحمد سعيد الدمرداش) عن هذه الظاهرة الاستثنائية في الحضارة الإسلامية: (وران على السطح غشاء رقيق من روح الحضارة

اليونانية كادت أن تصيب الحضارة الإسلامية بغلالات رقيقة أقرب ما تكون إلى طفح جلدي... ولكن سرعان ما استرد الفكر العلمي الإسلامي عافيته وأصالته في الابداع...)[١٠].

obeikan.com

المبحث الخامس

المنهج العلمي التجريبي عند المسلمين

لا نغالي إذا قلنا أن علماء المسلمين هم أول من ابتكر الأسلوب التجريبي في تناولهم للمعطيات العلمية والكونية من حولهم، وقد أدى هذا الأسلوب التجريبي إلى تأسيس قواعد المنهج العلمي التجريبي الذي لا زال العلم المعاصر يسير على وفقه.

تلمسنا في (مبحث سابق) السمات القرآنية للمنهج العلمي الذي عرفه المسلمون، وإضافة إلى ذلك هناك حقيقة تاريخية هامة وهي أن الأسلوب التجريبي، الذي أفرز المنهج العلمي التجريبي، اقتبس معالمه وخطواته من علم (الجرح والتعديل) الذي وضعه علماء السنة لحفظ الحديث النبوي الشريف من الدخيل. وقد امتلك هذا العلم جاذبية الاقتباس منه لعاملين: الأول منهما أن العلوم الإسلامية في حقيقتها كل مترابط بعضها يؤثر في بعض سواءً التطبيقي أو النظري منها. والعامل الثاني: الدقة المبهرة التي قام عليها ذلك العلم الحديثي وفق ميزان علمي بالغ الحساسية.

وقد قام علم الجرح والتعديل على القواعد التالية:

١ - الأمانة والنزاهة في الحكم.

obeikan.com

٢ - الدقة في البحث والحكم.

٣ - التزام الأدب في الجرح.

٤ - الإجمال في التعديل والتفصيل في التجريح.

بعد ذلك نرى بوضوح أن هذه القواعد الحديثية قد تكررت في منهج وأساليب العلماء المسلمين في العلوم التطبيقية، ألم يؤسسوا منهجاً يقوم على الأمانة العلمية والنزاهة المجردة، والدقة المتناهية، والأدب في الخلاف، والإنصاف مع المخالفين والإجمال في الكليات النظرية والتفصيل في الجزئيات العلمية.

بعد الحديث عن أثر أسلوب المحدثين ومنهجهم في المنهج العلمي التجريبي نأتي إلى ذكر أسلوب وخطوات ذلك المنهج العلمي. ثم نتبعه بنماذج تطبيقية مختارة لمنهجية بعض العلماء المسلمين في العلوم التطبيقية والإنسانية.

نلاحظ في مقدمات كتب العلماء المسلمين الدعوة المستمرة إلى المشاهدة وطلب الدليل والحرص على الانصاف في ظاهرة تدعو إلى الإجلال والإكبار.

لقد برز هذا المنهج بصورة جلية عند جلة العلماء المسلمين مثل ابن الهيثم العالم الفيزيائى والرياضي وابن النفيس وابن سينا والرازي في الطب وجابر بن حيان في الكيمياء وابن خلدون في الاجتماعيات وغيرهم الكثير جداً.

وقواعد هذا المنهج العلمي التجريبي تقوم على عدة مبادئ تأخذ شكل الخطوات المترابطة يأتي بعضها معتمداً على الذي قبله.

وهي المشاهدة والملاحظة ثم القياس ثم فرض الفروض ثم التجربة ثم استخلاص النتائج. هذا هو الخط العام للمنهج العلمي الذي وضعه المسلمون

وطبقوه على أبحاثهم ونظرياتهم التي توصلوا إليها، في جو علمي مفعم بالتجرد عن الهوى، والميل مع الحق.

إضافة إلى ما سبق التزم العلماء المسلمون بأخلاقيات البحث العلمي وآدابه حيث ابتعدوا عن الخوض فيما يفوق إدراك العقل البشري، أو البحث في علوم محرمة أو عديمة المنفعة، كما نص على ذلك (جابر بن حيان). كما التزموا بنسبة العلم إلى أصحاب الفضل فيه مع احتفاظهم بحق الملاحظة، والاستدراك، والتصحيح، والإضافة بأدب جم، وعلم وافر.

ومما يميز المنهج التجريبي لدى المسلمين هو تحركهم في نطاق واسع من الحرية العلمية مما يجعلهم يضعون الفروض ثم يسعون بعقل مفتوح وحواس يقظة إلى التأكد من صحتها بالاستقراء القائم على المشاهدة ثم التجربة ثم جمع النتائج. وبذلك خلصوا العلم البشري مما علق به قروناً متطاولة قبلهم من الأوهام والخرافات والتفسيرات الظنية وربط الظواهر الطبيعية بقوى أسطورية خارقة.

ونقف مع تطبيقات المنهج العلمي التجريبي، في سير العلماء العلمية ومؤلفاتهم التي ضمنوها أبحاثهم، ونظرياتهم لنرى مدى المسافة لديهم بين النظرية والتطبيق ولنعرف بعد ذلك فضلهم على من سبقهم ومن جاء بعدهم، ونبدأ بالعالم الموسوعي الحسن بن الهيثم.

منهج الحسن بن الهيثم: جاء عن هذا العالم في مقدمة كتابه المناظر ما يشف عن روح علمية خلاقة ومنصفه حيث إنه يتحرى في جميع ما يميزه وينتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء حتى يظفر بالحقيقة ويصل إلى اليقين[11].

كما قال ابن الهيثم بالطريقة المثلى للبحث العلمي، وقال بالأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل وبين أن الأسلوب العلمي من قواعده التجرد عن الهوى والانصاف بين الأراء.

وإذا اقتربنا أكثر نرى الخطوات المنهجية العملية التي طبقها ابن الهيثم أكثر وضوحاً حيث يمرر تجربته بعدة مراحل، نهايتها الوصول إلى الحقيقة المجردة. حيث يبدأ بالقياس ويسميه (السبر) ثم التجربة ويسميها (الاعتبار) ثم التقسيم ويسميه (الابطال) ثم الحصر ويقصد به (تعيين القواعد الكلية)، وهو يسلك هذا المنهج ليس فقط لإثبات صحة الفروض التي وضعها ولكنه أيضاً يصل به -في نظره- إلى مايسميه اكتشاف العلة (أي لإثبات خطأ الفروض).

وهنا يشهد لابن الهيثم أحد من تتلمذوا على كتبه وهو (كمال الدين الفارسي) حيث يقول: (فوجدت برد اليقين مما فيه، مع ما لم أحصه من الفوائد واللطائف والغرائب، مستندة إلى تجارب صحيحة واعتبارات محررة بآلات هندسية ورصدية وقياسات مؤلفة من مقدمات صادقة) وبالطبع المقدمات الصادقة تؤدي إلى نتائج مثلها[١٢].

وفي مجال الطب نجد للمسلمين دوراً عظيماً في الترجمة - لتراث الأمم والحضارات التي سبقتهم، وقد رافقت عملية الترجمة مع أمانة النقل تصحيح، واستدراك، وشروح ثم انتقلوا إلى مرحلة لاحقة تميزت بالإضافة والابداع فيما يمكن اعتباره علماً إسلامياً خالصاً ومستقلاً.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد ثابت بن قرة (الذي نبغ في علوم عدة كالطب والفلك والرياضيات...) يمثل (المرحلة الأولى) أي مرحلة الترجمة والنقل. ويمثل (المرحلة الثانية)، الرازي، وابن سينا، وطائفة كثيرة من العلماء.

وبما أن المرحلة الثانية هي مرحلة الإبداع والنبوغ الإسلامي في الطب -وغيره طبعاً- فقد ارتسم بوضوح المنهج العلمي التجريبي على ذلك المجال العلمي الحيوي حيث كان الطبيب المسلم يصف الأعراض ويشخص العلل ثم يربط بين المعطيات المتشابهة ثم يقوم بعملية تحليل وتفسير النواتج بعد

المشاهدة والملاحظة الدقيقة التي يعقبها فرض الفروض ومحاولة إثباتها -أو نفيها- بالتجربة ثم الانتقال إلى دراسة الجزئيات للوصول إلى الغاية وهي وضع النظريات الطبية والقوانين العامة.

وجاء عند ابن النفيس (ت: ٦٨٧هـ) ما يمثل المنهج العلمي للطب عند المسلمين، حيث إنه أقام منهجه على التصديق بالنظريات إذا كان العقل يقرها والحواس تقيسها، أما إذا كانت خلاف ذلك فلا يؤمن بها، وبمنهجه هذا استدرك على جالينوس، وابن سينا، مع مراعاة أدب الخلاف معهما لذا عزا بعض أخطائهما إلى أغاليط النساخ مما يدل على أنه قارئ فطن وعالم ذكي يقرأ، ويلاحظ، ويقارن ثم يفرز الصحيح من الخطأ ويحدد مصدره.

وإذا كان لمن سبق ابن النفيس[١٣] من العلماء فضل ابتكار وتأسيس المنهج العلمي التجريبي فإن ابن النفيس بعث فيه روحاً جديدة حيث يأتي جهده في الذروة لخدمة هذا المجال الحيوي في تاريخ العلم البشري. يقول الدكتور يوسف زيدان عن منهج ابن النفيس: (في كتابات ابن النفيس مالاحصر له من وقائع متصلة في مجال الخبرة اليومية والمشاهدات العادية إلى مجال الرؤية العلمية والرصد المنهجي، ومن الملاحظة يرقى (ابن النفيس) إلى التجريب المباشر وإن كان بصدد ماقرره الأطباء من قبله، وغالباً ما تقترن لفظتا (القياس) و(التجربة) في معرض حديثه عن طرق الإثبات) وقال عن منهجه أنه يسير وفق مبادئ استقاها ممن سبقه تضبط القياس لديه وحين يريد التثبت فإنه يلجأ إلى التجربة[١٤].

وفي مجال الرياضيات نقف على مثالين:

الأول: منهج الخوارزمي (ت بعد ٢٣٢هـ) وعاصر الخليفة المأمون. الذي احتضنه وقد برز منهجه أكثر ما يكون وضوحاً في كتابه الشهير (الجبر

والمقابلة) حيث ذكر في مقدمته عن هدف تأليف العلماء (عامة) للكتب وأشار إلى أخلاقهم ومراتبهم في العلم.

وأقام منهجه الرياضي على توظيف هذا العلم في الحياة اليومية فذكر في كتابه الآنف الذكر، تطبيقاته اليومية كالبيع والشراء. وتطبيقاته الشرعية كالميراث والوصايا.

وقد بسط في كتابه ذلك ما توصل إليه من نتائج تضمنت المعادلات وأقسامها ودرجاتها، وهو بذلك يضع علماً مستقلاً فريداً عرف بالجبر أسفر عنه منهجه القويم ومنطقه السليم، واعترافاً بفضل الخوارزمي في الرياضيات، لا زالت كثير من المصطلحات الدارجة اليوم من وضعه كعلم الجبر الذي يسمى (الجبرا) وعلم (الجوارزم) وهو أحد الفروع الرياضية [١٥].

ومثال آخر: وهو منهج الرياضي الشهير (البوزجاني) (ت: ٣٨٨هـ). برع هذا العالم في جميع العلوم الرياضية. ويقوم منهجه على المزج بين النظرية الرياضية وتطبيقاتها، ومن ذلك أنه فرق بين مهمة المهندسين والصناع، وفطن مبكراً إلى أهمية تدريب المهندسين لتلافي وقوع الأخطاء، وأكد على أهمية إطلاع الصناع على براهين المسائل الرياضية.

وقام منهجه كذلك على تبسيط الرياضيات للعامة. فقدم مسائل رياضية مبسطة لإمكانية استخدامها وتطبيقها لغير المتخصصين.

ومن دقة هذا العالم وإبداعاته أنك تجد في كتابه (المنازل السبع) أسلوب منهجي لعرض معلوماته. وأيضاً: ألحق كتابه ذاك بفهارس لتسهيل مهمة طالب العلم[١٦].

أما في الكيمياء فيقول جابر بن حيان شيخ الكيمياء: (إن الواجب على المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وأن المعرفة لا تحصل إلا بها).

كما حذر هذا العالم -نفسه- من مغبة الخوض في علوم غير ذات منفعة لأنها مضيعة للوقت. ووفق المنطق الأخلاقي يجب عدم تضييع الوقت في علوم محرمة. مع ما يتبع ذلك من إثم وخطيئة.

وإلى ذلك كله تجنب العلماء في شتى علومهم التطرق إلى علوم فوق عقل الإنسان وخارج نطاق حواسه، لأنهم تعلموا من الوحي المنزل ما يمنعهم من ذلك ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولأنهم أدركوا تبعاً لذلك محدودة العقل البشرية وضيق أفقه مهما أوتي من علم يقول تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وإذا انتقلنا إلى تطبيقات أخرى للمنهج العلمي التجريبي ولكن في مجال علمي آخر هو مجال الاجتماعيات، نجد خير مثال، هي التجربة الخلدونية:

في البدء يجب أن لا يثير تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الدراسات الانسانية (النظرية) الاستغراب. لأننا أسلفنا الأثر الذي تركه علم الجرح والتعديل على الأسلوب التجريبي الاستقرائى عند المسلمين في بداية نشأته. فلا عجب أن يعود رواد العلوم الإنسانية إلى الاستفادة من المنهج العلمي في دراساتهم وإثبات نظرياتهم.

وفي تجربة ابن خلدون مثّل هذا المنهج خير مثال في رائعته الشهيرة المقدمة، حتى وصفه المؤرخون من خلالها بأنه واسع الإطلاع غزير العلم، وأيضاً عميق الاستقراء، والاستنتاج، كما كان قوي الحدس في التحليل والمقارنة موفقاً في ضبط العلل والعوامل، وإقرار الأصول والأحكام والقواعد والأسس[١٧].

ويقول بنفسه عن منهجه في تاريخه المشهور (واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً وطريقة مبتدعة وأسلوباً..) والحق أن منهج ابن خلدون قام على

تناول التاريخ نظرياً تناولاً شذ فيه عمن قبله، حيث كان من سبقه ينظر إلى التاريخ أنه سجل لليوميات والحوادث فقط. ولكن ابن خلدون استطاع أن يحول هذه النظرة إلى نظرة أخرى أكثر عمقاً ومنهجيّة، وقائمة على تفسير حركة التاريخ (الصاعدة، والنازلة) وفق مبدأ السنن الكونية الربانية مع التأكيد على عامليّ الدين والأخلاق.

وينظر ابن اخلدون إلى التـــاريخ على أن له ظاهراً وباطناً، فظاهره الحوادث حين تمتلئ الأيام بها وباطنه كما يقول: (نظر وتحقيق وتعليل للكائنات عميق فهو لذلك أصل في الحكمة عريق، وجدير بأن يقيده في علومها وخليق)[١٨].

وابن خلدون حين ينفي عن نفسه التأثر بالفلاسفة فهو محق لأنه أقرب إلى مناهج أصحاب الطريقة الاستقرائية التجريبية من طريقة الفلاسفة المتكلمين، ويدل على ذلك الأسلوب الذي اتبعه والنتائج التي توصل إليها، لذا اعتبر بجدارة مؤسس علم الاجتماع (بلا منازع). يقول المستشرق الفرنسي (تياي) عن ابن خلدون: (أنه مؤسس علم الاجتماع وباعث فلسفة اجتماعية جديدة كما أنه المؤسس الحقيقي للمنهجية التاريخية)[١٩].

وفي نظري - القاصر- أن محاولة علماء الإنسانيات للإفادة من المنهج التجريبي وتطبيقه رغم نجاحها إلا أنها واجهت تحدياً يفوق ما واجهه علماء الطبيعة والرياضيات.

لأن العلوم الإنسانية تعتمد على الإنسان كعنصر رئيسي في مكنونها والإنسان بطبعه تتنازعه عوامل ومؤثرات متداخلة شاخصة في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] فهو (مختار ومخيّر) بين طريقين، ولكن الشريعة بوحييها استطاعت أن تمد المسلم بفهم واسع للكون والحياة، والإنسان والعلائق

بينهما. أما تلك العلوم التي تتناول الطبيعة وأسرارها التي أودعها الله إياها فهي تتعامل مع معطيات ثابتة وغرائز ربانية موجهة.

بعد كل ما سبق نستطيع القول إن حضارة اليوم لم تستطيع الانفكاك عن ذلك المنهج الذي وضعه المسلمون وابتدعوه وأبدعوا فيه ذلك المنهج الأصيل المتجدد الخلاق في أسسه، والمهذب في أدبه.

وإن كان للمسلمين أن يفخروا بشيء قدموه لأوروبا، بل للتاريخ البشري، فليفخروا بهذا المنهج العلمي الذي كان له الفضل في حفظ أرث وتراث الحضارات السابقة في العلوم والفنون من الضياع.

وإذا كان بعض الحاقدين من الأوربيين (قراصنة المعرفة والمنهج الإسلاميين) ينكرون عن عمد فضل المسلمين على نهضتهم (الريسانس) وبالتالي ينكرون امتداد هذا الفضل إلى بعض الميادين في الوقت الحاضر. فليتذكروا أن المسلمين هم وحدهم من قعّد هذا المنهج الذين يدعون وحدهم الوصول إليه. وليتذكروا جيداً أن ذلك المنهج هو الذي حفظ حضارة أصولهم القديمة (اليونانية والرومانية) فلم يطلعوا عليها إلا من خلال الجسر العلمي الذي مده المسلمون إلى قارتهم التي كانت غارقة في الظلام والجهل.

في حين كانت تلك الحضارات (اليونانية والرومانية) القديمة تعتمد منهجاً استنباطياً يعتمد على العقل المتحجر، دون الاستفادة المثلى من الحواس المرتبطة به كالسمع والبصر والحدس بل سارت على منهج عقلي (مقولب) يسعى لبحث وتقرير نتائج مستقرة سلفاً مع وقوع العقل في شباك ممتدة من الأساطير والخرافات والإيمان بالقوى الخارقة الوهمية. ولذا لم يسعَ ذلك المنهج (القديم) إلى الحقيقة بعقل مفتوح وحواس نشطة متجردة من الهوى والأساطير.

وفي عصر النهضة الأوروبية لم يكن (فرانسيس بيكون) هو الذي استحدث المنهج الاستقرائي التجريبي كما يزعمون، بل لا ريب أنه استقاه من كتب المسلمين وأبحاثهم.

وإن كان له فضل فهو فضل على قومه في أوروبا لا غير، حيث علمهم كيف يفكرون ويتعلمون ليلحقوا بركب الحضارة الإنسانية، وذلك بما نقله إليهم من علوم ومناهج إسلامية.

وإليك بعض شهادات أوروبية في أثر منهجية علماء المسلمين على أوروبا. منها ما قاله العالم (فون كرايمر) عن فضل المسلمين في تقعيد المنهج العلمي الاستقرائي:(إن أعظم نشاط فكري قام به العرب، يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختياراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً كبيرين حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من البحث والتجربة..)[٢٠].

ويقول في الصدد نفسه العالم (داريز): (لقد كان تفوق العلماء العرب في العلوم ناشئاً عن الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم، لقد تحققوا أن الأسلوب التفكيري وحده لا يكفي وأنه لابد من أسلوب علمي تجريبي يقوم على أصالة البحث والتجربة والابتكار، وذلك هو الذي رفعهم إلى هذا الترقي العظيم في علوم الرياضيات، والفلك، والطب وغير ذلك من العلوم المختلفة)[٢١].

وفي الختام أضع بين يدي القارئ الكريم سمات ومراحل المنهج العلمي المعاصر (للمقارنة)، وهي:

١ - تحديد المشكلة.
٢ - دراسة المعلومات المتوفرة.
٣ - وضع الفروض.
٤ - جمع الأدلة.
٥ - استخلاص النتائج.

من خلال هذه المراحل للمنهج العلمي المعاصر (للبحوث النظرية والتطبيقية) نتبين أصالة مناهج المسلمين ورقي حضارتهم، فلا الزمن، ولا التقدم العلمي الهائل، ولا ثورة الاتصالات، ولا تداخل الثقافات، هذه كلها لم تبعد العلماء المعاصرين عن التأثر بذلك المنهج الذي خطه المسلمون عبر تاريخهم وإفرازاتهم الحضارية.

لقد ظل العلم المعاصر مديناً وأسيراً في آن لمناهجنا وثقافتنا التي سدنا العالم بها زمناً ليس باليسير.

obeikan.com

هوامش المنهج

(١) مجلة الأمة، محرم، ١٤٠٤هـ، ص٧٢.

(٢) سنن ابن ماجه (٨١/١) حديث حسن. حسنه المزي، انظر (تدريب الراوي) للسيوطي (١٤٩/١).

(٣) رواه الترمذي، في سننه (٤٨/٥، حديث رقم ٢٦٨٥) والدارمي في سننه (٩٣/١، حديث رقم (٢٩٤)).

(٤) رواه أبو نعيم، في الحلية. وضعفه الألباني في الجامع الصغير وزيادته في حديث رقم (٢٤٤٨).

(٥) مجلة الكويت، عدد (٧٢)، ص١٠٧.

(٦) مجلة الأمة، محرم، ١٤٠٤هـ، ص٧٢.

(٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، طبعة جدة، (٥٣٨/١).

(٨) المصدر السابق، (٥٣٩/١).

(٩) محمد الشعفي، وآخرين، تاريخ الحضارة الإسلامية، ط٨، الرياض، وزارة المعارف، عام ١٤١٣هـ، ص١٥٣.

(١٠) مجلة المنهل، عدد، جمادى الأولى، ١٤٠٤هـ، ص٤٩.

(١١) محمد الشعفي، مصدر سابق، ص١٥٣.

(١٢) مجلة المنهل، مصدر سابق، ص٤٩.

(١٣) مجلة الأمة، مصدر سابق، ص٧٢.

(١٤) يوسف زيدان، علاء الدين (ابن النفيس) القرشي، إعادة اكتشاف، الطبعة الأولى، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٩م، ص١١٤.

(١٥) مجلة آفاق الثقافة والتراث، العددان (٢٣،٢٢)، جمادى الثانية، ١٤١٩هـ، ص١٨٥.

(١٦) المصدر السابق، ص١٨٦.

(١٧) مجلة الأمة، مصدر سابق، ص٧٥.

(١٨) المصدر السابق، ص٧٦.

(١٩) المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

(٢٠) مجلة الكويت، مصدر سابق، ص١٠٨.

(٢١) المصدر السابق، والصفحة ذاتها.